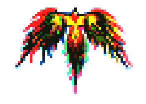
الشاعر نزار قباني ومافيا الأسد الإرهابيّة



نزار قباني وزوجته بلقيس، التي قُتِلَت بتفجير سيارة مفخخة أرسلتها مخابرات المُجرم حافظ الأسد لتفجير السفارة العراقية في بيروت، حيث سكنت عائلة نزار بذات البناية؛ فكتب قصيدته الشهيرة بلقيس



إعداد: فينيق ترجمة

https://ateismoespanarab.blogspot.com

10.03.2021

خطبها له الرئيس العراقي بعد رفض والدها له وواساه بها ياسر عرفات .. قصّة الشاعر السوري نزار قباني وبلقيس



مدى بوست – فريق التحرير

بلقيس يا وجعي.. ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأنامل.. هل يا ترى من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل.. قتلوك يا بلقيس.. أية أمة عربية تلك التي تغتال أصوات البلابل؟

بهذه الكلمات الرقيقة والعذبة رثى نزار قباني حبيبته وملهمته وزوجته "بلقيس الراوي" بعد أن وافتها المنية على إثر انفجار سيارة مفخخة أمام مبنى السفارة العراقية في بيروت عام 1981.

كيف بدأت قصة الحب بين نزار قباني وبلقيس؟

في عام 1962 كان الشاعر نزار قباني يلقي إحدى قصائده في مهرجان شعري أقيم في العاصمة العراقية بغداد، وأثناء إلقاء القصيدة وقع بصره على فتاة عراقية فاتنة ممشوقة القوام وساحرة الجمال، وما زالت في ريعان شبابها، فتقوقعت في قلبه، وهام بحبها من النظرة الأولى.

تعلق نزار بطيف الفتاة، وأحبها، فسأل عنها وعن مكان إقامتها، فعلم أن اسمها بلقيس الراوي، وتسكن في بغداد حي الأعظمية، بمنزل يطل على نهر دجلة.

ما إن علم نزار بذلك حتى سارع إلى التقدم لخطبتها من أبيها، ولأن التقاليد والأعراف السائدة في تلك فترة عند العرب كانت تنص على عدم قبول الرجل الذي يتغزل بالفتاة قبل خطبتها، لم يوافق والد بلقيس، فحزن نزار حزناً شديداً، وسافر إلى مكان إقامته آنذاك، حيث كان يعمل في السفارة السورية بإسبانيا.

الرئيس العراقي وعلاقته بزواج نزار قباني من بلقيس

حب لقيس بقي يلاحق نزار قباني كظله، ولم تغب عن مخيلته أبداً، فوجد طريقة يتبادل معها الرسائل الغرامية، سراً دون علم والدها، إلى أن عاد إلى العراق مجدداً، بعد مضي 7 سنوات على بداية قصة حبه لـ بلقيس.

في عودته هذه شارك "نزار" في مهرجان شعري ألقى فيه قصيدة غزلية أثارت شجون ومشاعر جميع الحضور، فعلم الجميع أنه يروي فيها قصة عشق حقيقية يعيشها على أرض الواقع وليست فقط مجرد كلمات منظومة في قصيدة شعرية غزلية، فحظي بتعاطف الحضور إذ قال في قصيدته تلك:

مرحباً يا عراقُ، جئت أغنيك وبعضٌ من الغناء بكاءُ

مرحباً، مرحباً.. أتعرف وجهاً حفرته الأيام والأنواءُ؟

أكل الحب من حشاشة قلبي والبقايا تقاسمتها النساء

كل أحبابي القدامى نسوني لا نوار تجيب أو عفراءُ

فالشفاه المطيبات رمادٌ وخيام الهوى رماها الهواءُ

سكن الحزن كالعصافير قلبي فالأسى خمرةٌ وقلبي الإناءُ

أنا جرحٌ يمشي على قدميه وخيولي قد هدها الإعياءُ

فجراح الحسين بعض جراحي وبصدري من الأسى كربلاءُ

وأنا الحزن من زمانٍ صديقي وقليلٌ في عصرنا الأصدقاءُ

كيف أحبابنا على ضفة النهر وكيف البساط والندماءُ؟

كان عندي هنا أميرة حبٍ ثم ضاعت أميرتي الحسناءُ

أين وجهٌ في الأعظمية حلوٌ لو رأته تغار منه السماءُ؟

وصلت أصداء القصة إلى الرئيس العراقي حينها "أحمد حسن البكر"، فأعجب بقصة الحب وتأثر بها، فأرسل وزير الشباب آنذاك "الشاعر شفيق الكمالي" ووكيل وزارة الخارجية، ومجموعة من شعراء العراق، ليخطبوا بلقيس لنزار من أبيها، فوافق والداها، فأقيم زواجهما عام 1969، لتبدأ قصة حب أجمل بينهما بعد الزواج.

نزار قباني و زوجته بلقيس الراوي

قصة حب تكللت بالنجاح

عاش نزار قباني وبلقيس حياة زوجية مثالية، وتعمق الحب بينهما أكثر بعد الزواج، إذ ترجم ذلك الحب عبر القصائد الغرامية التي كتبها "نزار" بعد زواجه من بلقيس، إذ كتب بعد مضي 10 سنوات على الزواج القصيدة الجميلة التي غناها الفنان كاظم الساهر ويقول مطلعها:

أشهدُ أن لا امرأة

أتقنت اللعبة إلا أنتِ

واحتملت حماقتي

عشرة أعوام كما احتملت

واصطبرت على جنوني مثلما صبرت

وقلمت أظافري

ورتبت دفاتري

وأدخلتني روضة الأطفال

إلا أنتِ

كان نزار قباني يبلغ من العمر 56 سنة عند كتابته لهذه القصيدة، إذ تلقى أول صدمة كبيرة في حياته في تلك الأثناء حين توفت والدته عام 1976، حيث شكلت هذه الصدمة منعطفاً في وجدان وحياة الشاعر، لشدة ارتباطه بأمه وتعلقه بها، فهي التي كتب لها قصيدة "خمس رسائل إلى أمي، عندما كان يضطر لتركها بسبب سفره الدائم، بحكم عمله في المجال الدبلوماسي.
بعدها تنقل نزار قباني وزوجته بلقيس بين العواصم العربية والعالمية، وذاقا طعم الاستقرار، حيث كانت ثمرة زواجهما أن أنجبا طفلين هما "عمر وزينب"، وكما يقول معظم النقاد إن أكبر ثمرة نتجت عن زواجه، هي مجموعة من القصائد الشعرية التي ألهم بها نزار آنذاك.

إذ بقيت تلك القصائد خالدة حتى يومنا هذا يرددها العشاق، وتغنت بها حناجر الكثير من المطربين العرب، أمثال عبد الحليم حافظ ونجاة الصغير وكاظم الساهر ولطيفة العرفاوي وغيرهم.

مأساة مقتل بلقيس

مع بداية الثمانينات استقر المقام بنزار قباني وبلقيس في العاصمة اللبنانية بيروت، التي كان يفضل نزار أن يطلق عليها اسم "ست الدنيا"، لتجمع المثقفين فيها آنذاك، إذ كانت الملاذ الآمن للمبدعين العرب الهاربين من بطش الأنظمة الحاكمة في البلدان العربية حينها، ليجدوا في لبنان مكاناً يعبرون فيه عن حريتهم وآرائهم دون قيود.

في تلك الفترة كانت زوجة نزار قباني على رأس عملها في بيروت، إذ كانت تعمل في السفارة العراقية هناك، وكان منزلها يعتبر بمثابة القاعة الثقافية والأدبية، ومكاناً مميزاً يجتمع فيه المثقفون والمبدعون العرب، كحال مكتب زوجها الموجود بشارع الحمراء وسط العاصمة اللبنانية.

في يوم 15 ديسمبر/ كانون الأول عام 1981، كانت المأساة عندما هز انفجار وسط العاصمة بيروت، وهز معه قلب نزار قباني، إذ استهدفت سيارة مفخخة مبنى السفارة العراقية التي سويت بالأرض، وراح ضحية هذا التفجير أكثر من 60 شخصاً، كانت من بينهم زوجة ومعشوقة نزار قباني " بلقيس الراوي".

قصّة بلقيس الراوي مع ياسر عرفات

بعض وسائل الإعلام العربية منها موقع " بوابة فيتو (https://www.vetogate.com/1535435) "، تحدّثت نقلاً عن الشاعر الكبير الراحل نزار قباني حديثه عن القصّة بين ياسر عرافات وبلقيس.

يقول نزار إن هناك الكثير من الأسرار التي لم يعلمها عن بلقيس إلا بعد رحيلها، ومنها قصّتها مع ياسر عرفات.

وأشار أنه في يوم التفجير، أتى ياسر عرفات فجأة للمكان، وبدا الحزن واضحاً عليه وهو يبحث عن بلقيس ويسأل "أين أنت يا بلقيس أين أنت يا ابنتي"، لتأخذ الأفكار بنزار ويسأل "هل ممكن أن تكون زوجته العراقية التي التقاها قبل 12 عاماً هي ابنة ياسر عرفات، وهو لا يعلم أن لعرفات ابنة".

بعد 15 يوم بقيت فيها بلقيس تحت الأنقاض والزعيم الفلسطيني يبحث عنها مع الباحثين، وذهب لوالدتها ليواسيها بعد أن تمت مراسم الجنازة، تحدث إلى نزار عن السر الذي أخفته بلقيس عنه.

ويروي نزار كاشفًا سر زوجته الراحلة: «عندما رجعنا من الجـنازة لمكتب أبي عمار، بدأ اللغز ينكشف، قال: «في عام 1968 وكنا خارجين من معـركة «الكرامة»، جاءتني في الأردن فتاة عراقية فارعة القامة، تجر وراءها ضفيرتين ذهبيتين، وطلبت مع زميلاتها في الثانوية تدريبهن على حمل السـلاح، وقبولهن مقـتلات في صفوف الثورة الفلسطينية، وبالفعل أعطينا الفتيات العراقيات، ومن بينهن بلقيس، بنـادق وأخذناهن إلى ساحة الرمي حيث تعلمن إطلاق الرصـاص، وأساليب القـتـال».

وأضاف " بعد أن دارت الأيام وانتقل النضال إلى لبنان، كتب لبلقيس أن تعمل في السفارة العراقية في بيروت، وفي أحد الأيام كان عرفات مدعواً للعشاء لدى أحد أصدقائه فصادف بلقيس زوجة نزار تدخل ومعها ذكريات نصرنا الجميل في «الكرامة» وتصافحه بحماسة".

وقد تم تشييع بلقيس كمناضلة فلسطينية، ودفـنها إلى جانب الشهداء الفلسطينيين، ولفها بالعلمين العراقي والفلسطيني؛ تكريمًا للأرض التي أخرجتها وللثورة التي نذرت نفسها لها، واختتم عرفات: «بلقيس الراوي لم تكن زوجتك فقط يا نزار، بقدر ما كانت ابنة الثورة الفلسطينية».

ويتناقل بعض الرواة الذين كانوا شاهدين على تلك المأسـاة أن الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات كان متواجد بالقرب من السفارة العراقية حين وقع الانفجار، فسارع إلى المكان منادياً بين الأنقاض عن بلقيس بقوله: " أين أنت يا بلقيس أين أنت يا ابنتي ردي على أبيك يا وردة الثورة الفلسطينية".

وتحدث نزار قباني عن لحظة وقوع الانفـجار قائلاً: "كنت في مكتبي بشارع الحمراء حين سمعت صوت انفـجار زلزلني من الوريد إلى الوريد ولا أدري كيف نطقت ساعتها: يا ساتر يا ربي".

ويضيف "بعدها جاء من ينعـي إلي الخبر.. السفارة العراقية نسفوها.. قلت بعفوية بلقيس راحت.. شظـايا الكلمات مازالت داخل جسدي.. أحسست أن بلقيس سوف تحتجب عن الحياة إلى الأبد، وتتركني في بيروت ومن حولي بقاياه، كانت بلقيس واحة حياتي وملاذي وهويتي وأقلامي".

ليكتب بعدها نزار قباني أطول قصيدة في حياته يـرثي فيها زوجته بلقيس الراوي، بكلمات جميلة توجت مسيرته الشعرية، وظلت خالدة وحاضرة بقوة ومتداولة إلى يومنا هذا، وإليكم جزء صغير من هذه القصيدة التي عنونها نزار باسم "بلقيس":

شكراً لكم .. شكراً لكم . .

فحبيبتي قـتـلـت .. وصار بوسعكم

أن تشربوا كأساً على قبر الشهيدة

وقصيدتي اغتـيلت ..

وهل من أمـةٍ في الأرض ..

– إلا نحن – تـغـتـال القصيدة؟

بلقيس ...

كانت أجمل الملكات في تاريخ بابل

بلقيس ..

كانت أطول النخلات في أرض العراق

كانت إذا تمشي ..

ترافقها طواويسٌ ..

وتتبعها أيائل .. بلقيس .. يا وجـعي ..

ويا وجــع القصيدة حين تلمسها الأنـامل

هل يا ترى .. من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل ؟

يا نينوى الخضراء .. يا غجريتي الشقراء ..

يا أمواج دجلة . . تلبس في الربيع بساقها

أحلى الخلاخل .. قتـلوك يا بلقيس..

أية أمةٍ عربيةٍ .. تلك التي

تغـتال أصوات البلابل؟

إلى بلقيس وإلى نزار

لقد لقَّنَ السوريُّون المُجرم حافظ الأسد درساً شهدته امرأته وشهده أبناؤه الإرهابيون وشهده العالم:

لعنوا روحه جهاراً نـهاراً وبالنقل المباشر على شاشات كثيرة خلال انتفاضتهم السلمية العام2011 على هذا الحُكم الإجرامي الذي لا يُجيد سوى القتل والاغتيال والتفجير! لو قُدِّرَ لنزار أن يرى الثورة السوريّة لكان قد كتب الكثير حولها ولأدرك أن الشعب السوريّ، كسائر شعوب العالم، لم ولن يتماهى مع الظلم والإجرام!

ما قاله نزار قباني في المُجرم حافظ الأسد

في مطلع ثمانينيات القرن الماضي، ومع صعود الخمينية الإيرانية، شهدت المنطقة العربية تنامياً للتحالف الأسدي الإيراني، وكان من ثمار هذا التحالف إنشاء كيانات وميليشيات محلّية في لبنان، تعود مرجعيتها إلى إيران، ويقوم النظام في سوريا بإيوائها وفتح معسكرات لها للتدريب والتأهيل، ومن أبرز تلك الكيانات الميليشياوية التي اعتمد عليها نظام الأسد لضرب خصومه والكيد لهم هما: حزب الله في لبنان، وحزب الدعوة في العراق، وبالتنسيق ما بين هاتين المنظمتين الإرهابيتين، ونظام دمشق، تم تفجير السفارة العراقية في بيروت يوم 15 كانون أول 1981 ، وكان من أبرز ضحايا تلك المجزرة، السيدة بلقيس الراوي، زوجة الشاعر نزار قباني (1923 – 1998)، الذي رثاها بقصيدة ملحمية، وقد جاء في تضاعيف القصيدة ما يشير بوضوح إلى ضلوع الأسد في تلك الجريمة، إذ يقول نزار:

(سأقول في التحقيق

إن اللص أصبح يرتدي ثوب المقاتل

وأقول في التحقيق

إن القائد الموهوب أصبح كالمقاول

وأقول

إن حكاية الإشعاع أسخفُ نكتةٍ قيلت

فنحن قبيلة بين القبائل)

وبطبيعة الحال، حاولت السلطات السورية آنذاك أن تحدّ من انتشار قصيدة بلقيس، وأذكر في حينها، أن مجلة المستقبل التي كان يرأس تحريرها المرحوم رياض الريس، كانت قد نشرت القصيدة على صفحاتها، فبادرت السلطات السورية إلى عدم السماح بدخول العدد الخاص الذي نُشرت فيه القصيدة إلى سوريا، كما أذكر في ذلك الحين، أن بعض أصحاب المكتبات في مدينة حلب، قاموا بتصوير القصيدة، ثم حوّلوها إلى كرّاسات صغيرة للبيع، نظراً للإقبال الكبير عليها من القراء، فما لبثت – على إثر ذلك – عناصر المخابرات أنْ بادرت بتفتيش العديد من المكتبات ومصادرة أي كرّاس يحتوي على قصيدة (بلقيس)، بل بات حيازة هذه القصيدة تهمة أمنية في حينها.

لماذا خاف نزار قباني أن يحرموه قبره في دمشق؟

قبل مدة ذكّرني احتفاء محرك البحث Google بالشاعر السوري نزار قباني، بوضع صورته على الصفحة الرئيسية لـ Google في الذكرى الخامسة والتسعين ليوم مولده يوم 21 مارس/آذار الماضي بتاريخ من الكيدية والتجاهل والإهمال والاستسخاف الذي تعرَّض له قباني وشعره في بلده سوريا خلال سنوات الحكم البعثي من قبَل كل السُّلُطات التي تعاقبت على حكم سوريا منذ الثامن من مارس/آذار 1963 وحتى اليوم.

فعلى الرغم من أن نزار قباني في شعره وفي مواقفه المعلنة لم يكن في يوم من الأيام معارضاً لكثير من أنظمة الحكم العربية، ولم تتجاوز مواقفه السياسية حدود الالتزام بالقضايا الوطنية الكبرى المتفق عليها تقريباً بين كل العرب، ولم يُعرف عنه مهاجمته صراحة لنظام عربي محدد بعينه، باستثناء موقفه من النظام السوري عندما فجَّر السفارة العراقية في بيروت، وقضت زوجته بلقيس في التفجير، ومهاجمة الحاكم العربي بشكل عام وبدون أسماء، إلاّ أن الحكم البعثي في سوريا كان يرى في نزار قباني عدواً تاريخياً له، رغم الاحتفاء به على مضض في بعض الأحيان التي لم يكن يستطيع فيها تجاهل قيمته ووجوده.

منذ انقلابه في عام 1963 اعتبر الحكم البعثي -الذي كان خلطةً ريفيةً طائفيةً أيدلوجية- نزار قباني عدواً له، فمن جهة كان نزار قباني في نظرهم سليل حالة دمشقية مدنية حاول الانقلابيون طمسها ومحوها خلال سنوات حكمهم، وفرض نمط حياتهم وعاداتهم وثقافتهم وأدبائهم بديلاً عنها، وساعدتهم شعارات الاشتراكية ومصطلحات الشيوعية التي أخفوا داخلها كل حقدهم على ما هو مدني ومختلف عنهم، بوصفه بالرجعية والبرجوازية، وكانت محاولة تغييب نزار قباني والاستهانة بشعره وتحجيمه بكونه مجرد شاعر غزليات ساذجة، ليست مهتمة بالصراع الوطني أو الطبقي جزءاً من همّ وهدف هذا الانقلاب، تماماً بنفس الطريقة التي سُرّح بها ضباط الجيش السوري الدمشقيين من الجيش، واستبدل بهم موظفي الدولة السورية، بجيش من رعايا ومحازبي وأتباع الانقلابيين، إلى حد أصبح فيه حرف القاف الأكثر سماعاً فيها، كما كتب مرةً الدكتور سامي الجندي أحد وزراء إعلام الانقلاب في وصف ما حدث من تبدّل لحالة الإدارة السورية.

ومن جهة ثانية، كان نزار قباني وسواه من الكُتّاب والشعراء السوريين عقبة يجب تهشيمها عبر تشويهها لفرض ثقافة أخرى وكتاب وشعراء جدد ينتمون إلى نفس الأصول والطوائف والأيديولوجيات التي كان ينتمي إليها قادة الانقلاب، وابتداءً من ستينيات القرن الماضي أنتج الحكم البعثي مجموعات كبيرة من هؤلاء، تمت رعايتهم من قِبَل كل أجهزة السلطة وإعلامها باعتبارهم ثوريين، ويمثلون الأدب الجديد.

الأحزاب والتيارات الشيوعية التي توالدت من رحم الحزب الشيوعي الأم منذ سبعينيات القرن الماضي، والتي تسرب إليها نفس النسيج الطائفي والاجتماعي للانقلابيين البعثيين ساهمت في تلك المعركة بفرض ثقافة وأدب أنصاف وأرباع وأخماس المواهب التي احتلت المنابر الثقافية والإعلامية في سوريا، وساهمت في معركة تشويه نزار قباني وسواه.

لكن هذه المعركة السلطوية ضد نزار قباني لم تنَل في لحظة من اللحظات من قيمة نزار قباني عربياً وانتشاره شعبياً، ولزمن طويل (وربما حتى اليوم) لا يزال الشاعر العربي الأكثر شهرةً وشعبيةً، لا ينافسه في ذلك إلاّ محمود درويش، الذي ومن دون أي مسّ بقيمته الكبيرة كشاعر عظيم، ساعدته فلسطين في الانتشار جماهيرياً، في حين لم يتكئ نزار قباني على أي عكاز غير شعبية شعره للحصول على الجماهيرية التي تمتع بها .

كان نزار قباني مدركاً لهذه الحرب الكبرى عليه كشاعر وعلى القيم التي يمثلها، وواعياً للعدو الذي يواجهه، وربما لهذا السبب اختار بيروت أولاً ثم لندن بعد الحرب الأهلية اللبنانية، ولم يفكّر بالعيش في مدينته دمشق التي أحبها وتغزّل بها طوال عمره، ومن فرط إدراكه لحقد أعدائه، فضّل أن يعود إليها ميتاً ويدفن في أرضها على أن يعيش فيها حياً، ولذلك أجاب مرة المخرج بسام الملاّ (الذي كُلّف من قبَل التلفزيون السوري بتصوير قصيدته الاعتذارية) عندما سأله عن سبب عودته طالباً المصالحة مع النظام بعد القطيعة التي سببتها له قصيدته الشهيرة "بلقيس"، وهو الذي يعيش في لندن، ولا يحتاج للنظام لا من قريب أو بعيد، بقوله: هؤلاء حقودون، وسيمنعون عني قبري في دمشق، وأنا أصالحهم لأحتفظ بحق دفني هنا .

كان نزار قباني على حق، وأنا واحد من شهود الحقد الذي تجلّى بأبشع صوره على نزار قباني عند وفاته، فبعد إعلان نبأ الوفاة في لندن أمر حافظ الأسد بإرسال طائرة لنقل جثمانه من لندن، وليوم واحد بدأ الإعلام السوري بالكتابة عن نزار قباني، ثم فجأة صدر توجيه من وزير الإعلام محمد سلمان آنذاك بعدم ذكر نزار قباني نهائياً وبشكل قطعي في أي من وسائل الإعلام السورية، في الوقت الذي حظيت فيه وفاته باهتمام عربي لافت ولأكثر من عشرة أيام، أُعيد فيها نشر وبث مقابلاته، وأُجريت ندوات حول شعره، وبعد استقصاء طويل تبيّن لي ولغيري من المهتمين بمعرفة سبب هذا الصمت الإعلامي المفاجئ تجاه وفاته، أن ابنة الشاعر الصغرى قالت لوفد السفارة السورية في لندن الذي جاء ليعزيها: قتلتم أمي واليوم أتيتم لتسرقوا أبي، ونقل كلامها إلى دمشق، فصدرت الأوامر للإعلام المكتوب والمرئي والمسموع بمنع ذكر نزار قباني، ولم يفكّر أحد للحظة بأن يتسامح مع كلام انفعالي قالته ابنة مفجوعة بموت والدها.

أتذكر أن جنازة نزار قباني خلت من المثقفين، ولم يكن بين منتظري الجثمان الذي جاء من مشفى الشامي إلى جامع بدر بدمشق أيٌّ من الشيوعيين أو التقدميين الذين كانوا يرتادون الأمسيات الشعرية والمسرحيات والندوات الأدبية والفنية التقدمية، وباستثناء بعض الفنانين العرب الذين غنّوا من أشعار نزار قباني ككاظم الساهر ولطيفة التونسية، كان جمهور الجنازة من محبي نزار قباني، وكان في أغلبه من الشباب، والفتيات كُنَّ متوزعات بين محجبات وبدون حجاب.

وأتذكر كيف سرق هؤلاء الشباب والشابات الجثمان من على درج جامع بدر ورفضوا أن يُدخل في سيارة دفن الموتى، وضربوا طوقاً حوله لمنع أي محاولة اقتراب منه، ولم تفلح كل محاولات عناصر المخابرات تخليصه من أيديهم وإيداعه سيارة دفن الموتى خلال طريقهم من حديقة الجاحظ مروراً بشارع أبورمانة إلى جسر الجامعة فالحلبوني فشارع النصر فباب الجابية، وصولاً إلى مقبرة باب الصغير.

أتذكر هتافات المشيّعين التي كانت ترد على إعلام حافظ الأسد ومحمد سلمان الصامتين المتجاهلين لوفاة شاعرهم، وهم يقولون "الشام شامنا ونزار نزارنا "و"أبورمانة هوجي هوجي، ويا شاغور هوجي هوجي، ويا شام هوجي هوجي"، وأتذكر عندما خاف المشيعون من النزول بالجثمان إلى ساحة المرجة بعدما طالبتهم أصوات بذلك، وهمّوا بالانعطاف نحوها من شارع النصر ولكنهم تراجعوا، وأتذكر عندما رُفع على الأكتاف طفل وهو يرتدي بزّة عسكرية مموهة بكل ما تعنيه من رمزية عسكرية ومرجعية تذكّر بقوات سرايا الدفاع المجرمة، وصدرت هتافات من بعض من كانوا يمشون في التشييع تحث المشيعين على الهتاف بالروح بالدم فداءً لحافظ الأسد، فكان هؤلاء يردون عليها بقراءة الفاتحة بصوت عالٍ وموحد، أو بالهتاف: "لا إله إلاّ الله، والشهيد حبيب الله"، وأتذكر الأقدام المدماة التي فقدت أحذيتها للشباب الذين ضربوا طوقاً حول الجثمان ومنعوا أحداً من اختطافه منهم، ونجحوا في الوصول به إلى مقبرة باب الصغير.

أتذكر تلك الجنازة التي كان فيها جسد نزار قباني المسجى داخل تابوت أقوى من كل من حوله، وأن المشيعين كانوا يتمسكون به؛ لأنه مصدر قوتهم، وأن اختطافه من بين أيديهم سيعني انتهاء كل شيء وعودة الصمت إلى كل شارع يعلو صوته خلال مرورهم فيه، وأتذكر أن جنازة نزار قباني كانت المظاهرة الأولى ضد حُكم حافظ الأسد الطائفي، وأظن أن حافظ الأسد ربما فكّر طويلاً ذلك اليوم بما حدث في التشييع، وأنه أدرك أن مجازر حماة وتدمر وحلب وجسر الشغور وكل السجون والقهر والذل لم تنَل من إرادة الشعب السوري، وأنه كان على حق حين اعتبر أن نزار قباني بما يمثله من رمزية هو العدو الحقيقي والمخيف له ولنظامه ومشروعه الطائفي .

مضت سنوات بعد وفاة نزار قباني وكان ذكره يمر لماماً وعلى خجل، ولم يتجرأ أحد على تذكّره بأسبوع أو بيوم في السنة، في حين كان يُحتفى لمدة أسبوع كل عام بشاعر ضعيف الموهبة، وتحوّل كاتب مسرحي من الدرجة الرابعة إلى أيقونة؛ لأنهما ينتميان إلى نفس النسيج الاجتماعي لسلطة الانقلاب، ويعتبران هما وغيرهما من وجوهها، وينتجان أدباً اغتصابياً يتعامل مع المدينة ودمشق على وجه الخصوص بكل ما تمثله من قيمة مدنية وحضارية وتاريخ كماخور، على عكس شعر نزار قباني الذي خلّدها كسجادة صلاة وبستان زهور وخزانة حضارة.
شكراً Google إذ يُذكّر السوريين بأن الأيديولوجيات والانقلابات لا تصنع أدباً، ولا تستطيع أن تُنهي شاعراً.

نزار قباني.. عندما خرجت سوريا في جنازة شاعر

“الدنيا لسا بخير، إذا في بلد كاملة بتطلع بجنازة شاعر“، لم تكن هذه العبارة عادية، في مدينة كدمشق، سميت بعاصمة مملكة الصمت، والقصد هنا، جنازة الشاعر السوري الراحل نزار قباني، وقائلها الفنان خالد تاجا، في أحد مشاهد مسلسل الفصول الأربعة في جزئه الأول، ضمن أحداث حلقة حملت اسم ”أصدقاء نزار قباني“، واستعان فيها المخرج حاتم علي بمشاهد حقيقية من جنازة نزار قباني.

نزار قباني كان شاعرًا جدليًا، اصطدم مع السلطة في سوريا، وتنقل الروايات الشعبية أن قصيدة عنترة، كانت موجهة لحافظ الأسد.

ارتبط اسم نزار بدمشق، نتيجة قصائده الكثيرة التي تغزل فيها بمدينته الأثيرة.

عندما تتحول الجنازة إلى مظاهرة صامتة

خرج الآلاف في جنازة نزار قباني، يبكون شاعرهم، وكأن الجنازة انقلبت إلى مظاهرة، ومشوا في شوارع المدينة التي تغزل بها في قصائده، مرددين أبياته الشعرية، مع انتشار كثيف لقوات الأمن السورية، وقوات حفظ النظام وعناصر المخابرات، وبعد صلاة الجنازة، رفضوا وضع النعش في السيارة، وحملوه على الأكتاف، حتى وصلوا إلى مثواه الأخير.

ولد نزار قباني في عام 1923، في حي مأذنة الشحم العريق في دمشق، وشهد بيته اجتماعات الكتلة الوطنية المناهضة للانتداب الفرنسي على سوريا، وتخرج في كلية الحقوق عام 1945، والتحق بوزارة الخارجية السورية وعمل في السلك الدبلوماسي كملحق في السفارات السورية في إسبانيا وبلجيكا والصين وغيرها، حتى استقالته في عام 1966.
أصدر نزار أول دواوينه الشعرية في عام 1944، تحت اسم ”قالت لي السمراء“، والذي أثار ضجة كبرى، وهاجمه على إثره الكثيرون.

خلافات مع نجيب محفوظ وآخرين

شابت حياة نزار، العديد من الصراعات مع كتاب ومثقفين عرب، لعل أبرزها خلافه الشهير مع الروائي المصري نجيب محفوظ، والذي هاجمه إثر نشره قصيدة ”المهرولون“، والتي هاجم فيها محادثات السلام مع الاحتلال الإسرائيلي.
وهجوم محفوظ كان بسبب رؤيته أن نزار لا يقدم بديلًا للسلام، ولا هو يدعو للحرب أيضًا، فما كان من نزار إلا أن رد عليه في مقال طويل، قال فيه "إن أستاذنا نجيب محفوظ، مصنوع من القطيفة، وأنا من البارود والنار، هو من حزب الحمام، وأنا من حزب الصقور ".
ونشأ خلاف آخر بين المطرب المصري، عبد الحليم حافظ، ونزار قباني، إثر تغيير عبد الحليم لبعض كلمات قصيدة "قارئة الفنجان".

كما منعت قصائده في مصر، بعد قصيدته الشهيرة، هوامش على دفتر النكسة، والتي جاءت بعد نكسة عام 1967، حتى أرسل نزار قباني رسالةً إلى الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، شرح فيها أسباب كتابة القصيدة، فأزال عبد الناصر المنع.

غنى له كبار المطربين العرب

غنى أشعار نزار، كبار المطربين العرب، فغنت له أم كلثوم قصيدة ”أصبح عندي الآن بندقية“، وعبد الحليم قصيدة ”قارئة الفنجان“، ونجاة الصغيرة "ماذا أقول له".

كما غنى له كل من أصالة نصري وكاظم الساهر وماجدة الرومي وغيرهم.

نزار قباني و'حشيش' الديمقراطية – صبحي حديدي

في مطلع شباط (فبراير) الماضي استذكرتُ الشاعر السوري الكبير نزار قباني (1923 ـ 1998)، حين افتتح بشار الجعفري، مندوب النظام السوري في الأمم المتحدة، كلمته أمام مجلس الأمن الدولي ببيت من قباني، على سبيل الإيحاء بأنّ شعر الراحل ينتصر لدمشق (رمز النظام، في رأي مندوب النظام)، ضدّ غدر العرب وجحود العروبة. وكما هو معروف، للجعفري نفسه، كانت القصيدة موضوع الاقتباس، 'من مفكرة عاشق دمشقي'، مناهضة لأنظمة الطغيان والفساد العربية عموماً، ولحكم حزب البعث بصفة خاصة: 'يا شام، أين هما عينا معاويةٍ/ وأين من زحموا بالمنكب الشهبا/ فلا خيول بني حمدان راقصةٌ/ زهواً، ولا المتنبي مالئٌ حلبا/ وقبر خالد في حمصٍ نلامسه/ فيرجف القبر من زوّاره غضبا'...

اليوم، في ذكرى رحيل قباني (30 نيسان/ أبريل)، أعود إلى قصيدة 'خبز وحشيش وقمر'، وإلى واقعة اقترنت بها، ذات طابع سياسي وحكومي وبرلماني يعكس مناخات سورية في خمسينيات القرن الماضي. كذلك فإنه يحمل الكثير من الدلالات حول الماضي والحاضر، وربما استشراف المستقبل أيضاً، حيث يأمل السوريون أن تنقلهم هذه الانتفاضة العبقرية إلى حياة ديمقراطية سبق أن اختبروا بعض فضائلها، لا سيما على مستويات التسامح (الديني والسياسي والأخلاقي)، وحرّية الرأي، وفصل السلطات، وخصوصية التعبير الأدبي. والقصيدة، وهي هنا المثال على ذلك التسامح، كانت منعطفاً حاسماً في مسار قباني الشعري، والفكري ربما، لأنه بعدها اكتسب صفة الشاعر/ الناقد الاجتماعي، الراديكالي، الذي يقوّض في العمق، ويهدم ابتداء من الركائز.

لم يكن مستغرباً، إذاً، ان تثير القصيدة سخط المحافظين والمتدينين في المقام الأوّل (تماماً كما انتهت إليه حال جدّ الشاعر، الرائد المسرحي الكبير أبو خليل القباني)؛ إذْ لم يكن مألوفاً، البتة، أن تشهد مطالع خمسينيات القرن الماضي شاعراً سورياً، دمشقياً ومسلماً، يكتب التالي: 'ما الذي عند السماء/ لكسالى ضعفاء/ يستحيلون إلى موتى إذا عاش القمر/ ويهزّون قبور الأولياء/ علّها ترزقهم رزّاً وأطفالاً، قبور الأولياء/ ويمدّون السجاجيد الأنيقات الطُرَر/ يتسلون بأفيون نسمّيه قدر/ وقضاء/ في بلادي.. في بلاد البسطاء'. كانت القصيدة بمثابة منشور سياسي ـ اجتماعي، علني وشعري، جسور المعاني وفاتن اللغة، يدعو إلى الانعتاق من أغلال الإرث والدولة والقبيلة؛ فكيف إذا كان القائل موظفاً رفيعاً في السلك الدبلوماسي السوري، وأحد كبار العاملين في السفارة السورية في لندن؟

وهكذا، ولأنّ الحياة النيابية السورية كانت تتيح مساءلة الحكومة بحرّية، توجّه النائب مصطفى الزرقا (باسمه شخصياً، وبالنيابة عن كتلة نوّاب 'الإخوان المسلمين' التي ينتمي إليها)، لمقابلة وزير الخارجية آنذاك، خالد العظم، فكان طبيعياً أن يأبى الأخير، وهو الليبرالي المخضرم، معاقبة قباني أو طرده من الوظيفة بسبب قصيدة، أياً كان محتواها. مارس الزرقا، بعدئذ، حقّه التالي: عقد جلسة نيابية لاستجواب الحكومة، ترأسها ناظم القدسي رئيس مجلس النوّاب، وحضرها صبري العسلي، رئيس مجلس الوزراء وزير الداخلية؛ وعبد الباقي نظام الدين، وزير الأشغال العامة؛ وفاخر كيالي، وزير الاقتصاد الوطني؛ وليون زمريا، وزير المالية؛ ومأمون الكزبري، وزير العدل. وألقى الزرقا، وكان أديباً ونحوياً وأستاذاً في كلية الشريعة بجامعة دمشق، خطبة عصماء ضدّ 'رجل يمثلنا ويعرض صورة عنا في قصيدة داعرة فاجرة انحلالية'، و'تُظهر الشعب العربي في أقبح صورة'، و'تعرضها على أنظار الأجانب في صورة يقشعرّ لها بدن كل عربي يتحسس بالمروءة والكرامة'.

وعلى ما يروي شمس الدين العجلاني، انتهت الجلسة دون اتخاذ توصية بإحالة قباني إلى لجنة التأديب، فتوجه الزرقا مجدداً إلى وزير الخارجية، الذي كان قد طلب من الأمين العام للوزارة موافاته بتقرير مفصـــل عن ملفّ قباني الوظيفي (وليس الشعري، أو السياسي، أو الأمني!). جواب العظم سار هكذا: 'يا حضرات النوّاب الأعزاء، أحبّ أن أصارحكم بأنّ وزارة الخارجية السورية فيـــها نزاران: نزار قباني الموظـــف، ونزار قباني الشاعر. أمّا نزار قباني الموظف، فملفّه أمامي، وهو ملفّ جيد ويثبت أنه من خيرة موظفـــي هذه الوزارة. أمّا نزار قباني الشاعر، فقد خلقه الله شاعراً، وأنا كوزير للخارجية لا سلطة لي عليه، ولا على شعره. فإذا كنتم تقولون إنه هجاكم بقصيدة، فيمكنكم أن تهجوه بقصيدة مضادة، وكفى الله المؤمنين شرّ القتال'!

والحال أنّ اتفاق المرء أو اختلافه مع موقف الزرقا، وتعاطفه مع قصيدة قباني أو رفضه لها، لا يطمس سلسلة الحقائق الجوهرية الأولى وراء هذه الحكاية: أنّ مجلة 'الآداب' اللبنانية، التي نشرت القصيدة (وشاء رئيس تحريرها، الراحل الكبير سهيل إدريس، أن يجعلها افتتاحية المجلة!) لم تُمنع من دخول سورية، ولم تُصادَر بعد وقوع الإشكال؛ والنزاع بين الزرقا وقباني لم يُناقش في شعبة مخابرات، أو حسم الأمر فيه ضابط أمن أو ضابط رقيب؛ وأنّ النوّاب مارسوا حقهم في الاعتراض، والوزير المعنيّ مارس حقه في ردّ الاعتراض... وكفى الله المؤمنين شرّ القتال، في نهاية المطاف، تماماً كما عبّر العظم!

كان 'الحشيش' ذاك ديمقراطياً، إذاً، فلم ينتهِ بالشاعر إلى الزنزانة، ولا إلى قانون الحسبة؛ وسطّر صفحة مضيئة، أخرى، في سجلّ سوري عريق... هيهات أن يرضى السوريون عن استئنافه بديلاً

من يسكن بيت نزار قبّاني الآن؟

يشكّل المبدعون في المجالات الفنية والعلمية والفكرية، جزءًا من نهضة البلدان التي ينتمون إليها، ما يدفع حكومات بلدانهم لتكريمهم وتخليد ذكراهم بطرقٍ شتىّ؛ منها تحويل بيوتهم إلى متاحف ومزارات خاصّة. شيءٌ لم تعتد عليه الدول العربية عمومًا وسورية خصوصًا.

في لبنان، تقيم بلدية مدينة بشرّي في الشمال، متحفًا في منزل الأديب اللبناني الراحل جبران خليل جبران، وفرنسا تجمع كل الشخصيات المؤثّرة في تاريخها في مقبرة واحدة تسمّى "البانتيوم"، كما تشير بلافتات طرقية إلى أماكن سكن وعمل مبدعين فرنسيين من كل المجالات، كـ ماري كوري وفيكتور هوغو، تمامًا كما هو الحال في مصر التي تهتم بإرث شخصيات أغنت الفن العربي كأم كلثوم وغيرها، أما في سورية فلم تأبه بلدية دمشق بحال الكثير من بيوت مبدعيها أو إرثهم الفني والثقافي، كحال منزل الشاعر السوري الراحل نزار قباني، والذي تحوّل إلى معرض لصور الأسد والأمين العام لـ "حزب الله"، حسن نصر الله.

يقع منزل الشاعر نزار قّباني وسط حي مئذنة الشحم في قلب مدينة دمشق القديمة، وعلى مقربة من سوق البزورية الشهير، ومنطقة باب صغير، ولد نزار في آذار/ مارس من سنة، 1923 وهناك عاش فترة طفولته وشبابه، حيث تحف المكان أشجار الياسمين والنارنج التي تخيّلها معظم قرّاء الشاعر ومحبّوه.هناك، جلس أبو المعتز وأم المعتز، بحسب قصائد صاحب "قالت لي السمراء" أيضًا؛ هناك اجتمع رجال الكتلة الوطنية لأكثر من مرّة خلال الانتداب الفرنسي، فوالد نزار كان وجيهًا في حيه وناشطًا سياسيًا، وعن هناك يقول الشاعر:

"في باحة الدار الشرقية الفسيحة، أستمع بشغف طفولي غامر، إلى الزعماء السياسيين السوريين يقفون في إيوان منزلنا، ويخطبون في ألوف الناس، مطالبين بمقاومة الاحتلال الفرنسي، ومحرّضين الشعب على الثورة من أجل الحرية، وفي بيتنا في حي (مئذنة الشحم) كانت تعقد الاجتماعات السياسية ضمن أبواب مغلقة، وتوضع خططٌ للإضرابات والمظاهرات ووسائل المقاومة. وكنّا من وراء الأبواب نسترق الهمسات، ولا نكاد نفهم منها شيئًا". من نص "الولادة على سرير أخضر".

البيت تم بيعه في ثمانينيات القرن الماضي، وكان نزار حيًا في ذلك الوقت، إلا أنه كان يقيم في لندن نظرًا لخلافاته المعروفة مع النظام السوري. عن البيع، يحدّثنا الكاتب الصحافي محمد منصور قائلًا: "بيت عائلة توفيق القباني، والد نزار قباني في حي مئذنة الشحم في دمشق القديمة، باعته العائلة منذ سنوات طويلة، حين انتقل بعض أفرادها للإقامة في حي أبو رمانة الأرستقراطي في الثمانينيات".

الحقيقة أن محافظة دمشق لم تكن مهتمة بتخليد ذكرى نزار قباني، وإن أطلقت اسمه على شارع فرعي في حي أبو رمانة في أواخر عهد حافظ الأسد، ثم غضب عليه النظام بعد موته عام 1998 ومنعت بثّ أي شيء عنه وعن جنازته التي مشى بها الآلاف في دمشق.

البيت العربي القديم وسط حي الشاغور، يغيب اليوم بكل تفاصيله التراثية ومعانيه التاريخية للحركة الوطنية في سورية، وما أكسبه للشعر العربي من مخيلة نزار قباني؛ حيث لم يعد موجوداً إلاّ بـ أسواره الخارجية فقط، فمُلاك البيت الجدد، وهم من عائلة نظام الدين العريقة في دمشق، والمعروفة بانتمائها وموالاتها لـ "محور المقاومة"، غيّروا شكله وأصبحت أرضه مرمرًا بأشكال حديثة وجدرانه بعضها من السيراميك، كما وضعوا مصعدًا كهربائيًا بين الطابق الأوّل والثاني.

في إيوان المنزل، حيث كان يجتمع رجال الكتلة الوطنية السورية، توضّح الصور أن رأس النظام السوري بشّار الأسد بات هو من يتصدّر المشهد في صورة له أعلى الجدار، وعلى يمينه صورة للأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله.

يقول محمد منصور: "هناك هجمة إيرانية شرسة لتملّك البيوت والعقارات في دمشق القديمة، وقد استفحلت بعد التواجد العسكري لإيران ومليشيات حزب الله بعد الثورة أملًا في إحداث تغيير ديموغرافي، يسمح لهم بتغيير منبع الهوية في قلب دمشق في المدينة القديمة، وهو أمر سينهار ويفشل حتمًا ما إن ينهار التواجد العسكري الإيراني

والمليشاوي بسقوط النظام"، لافتًا أن شراء منزل عائلة القباني لا يدخل ضمن هذه الحملة، إلّا أن حال المنزل اليوم يمثّل فرصة عائلة نظام الدين للتعبير عن اصطفافها.

بعيدًا عن هوية مالك البيت الجديد وأسباب بيعه؛ السؤال الأهم هو لماذا لم تهتم بلدية دمشق أو وزارة السياحة أو مديرية الآثار والمتاحف في وزارة الثقافة بشراء البيت، وهل كان سيواجه مصيرًا أفضل أم أنه سيكون كحال منزل جدّ نزار مؤسّس المسرح السوري أبو الخليل القباني، الذي يصفه الباحث الاقتصادي العامل في وزارة السياحة السورية سابقًا يوسف حمامي بـ"الخرابة"، مستطردًا: "البيت كان خرابة اشترته وزارة السياحة ولم تُقم فيه أي نشاط ثقافي، حيث اختُلف على تحويله إلى متحف أو مطعم".

العزاء الوحيد ربّما لأسرة الشاعر السوري الراحل نزار قباني، هو أن البيت لا زال مسكونًا ولا ينكر أصحابه تاريخه، حيث فتحوا أبوابه لـ تقبل عزاء القباني في نيسان/ أبريل 1998، وهذا يبدو أفضل على الأقل من أن يتحوّل إلى مطعم أو مقهى تراثي، ليبقى باب السؤال مفتوحًا، عن مصير إرث مئات المبدعين السوريين، ليس ما يتعلّق بمساكنهم فحسب، بل إنتاجهم الإبداعي وحقّهم من التكريم في الحياة والموت.

المصادر

https://madapost.net/2019/10/27/%d9%86%d8%b2%d8%a7%d8%b1-%d9%82%d8%a8%d8%a7%d9%86%d9%8a-%d9%88-%d8%a8%d9%84%d9%82%d9%8a%d8%b3-%d8%a7%d9%84%d8%b1%d8%a7%d9%88%d9%8a/?fbclid=IwAR0nozxsfeAEPU3Tke-nJaiQg9lXPBRZzPoqmlXqsmltfOVlpPz9Kg67p-g

https://www.syria.tv/%D9%85%D8%A7-%D9%82%D8%A7%D9%84%D9%87-%D9%83%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D8%B4%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D8%A1-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D9%81%D9%8A-%D8%AD%D8%A7%D9%81%D8%B8-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B3%D8%AF

https://arabicpost.net/opinions/2018/06/16/%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B0%D8%A7-%D8%AE%D8%A7%D9%81-%D9%86%D8%B2%D8%A7%D8%B1-%D9%82%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D8%A3%D9%86-%D9%8A%D8%AD%D8%B1%D9%85%D9%88%D9%87-/%D9%82%D8%A8%D8%B1%D9%87-%D9%81%D9%8A

https://www.enabbaladi.net/archives/297816

https://souriahouria.com/%D9%86%D8%B2%D8%A7%D8%B1-%D9%82%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A-%D9%88%D8%AD%D8%B4%D9%8A%D8%B4-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%85%D9%82%D8%B1%D8%A7%D8%B7%D9%8A%D8%A9-%D8%B5%D8%A8%D8%AD%D9%8A-/%D8%AD%D8%AF

https://www.alaraby.co.uk/society/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%85%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%A9-%D9%86%D8%AD%D9%88-350-%D8%A3%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%8B-%D9%8A%D8%B9%D8%A7%D9%86%D9%88%D9%86-%D9%85%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D8%A7%D8%B9%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%AA%D9%8A%D8%BA%D8%B1%D8%A7%D9%8A-%D8%A8%D8%A5%D8%AB%D9%8A%D9%88%D8%A8%D9%8A%D8%A7